الباب الثامن

فلسطين خلال عصر البرونز المتأخر

١٦٠٠-١٢٠٠ ق.م

يعتبر هذا العصر امتداداً لعصر البرونز المبكر والمتوسط، إذ حافظ المجتمع بفلسطين على نظام المدن المستقلة وبناء القلاع والحصون ومنازل الأشراف، ولم تتغير العبادة فأدى هذا إلى عدم التغيير في نظام عمارة المعبد، ولم تختلف نظرتهم إلى الموت والحياة عما كانت عليه في العصور السابقة ولذلك بقي فن عمارة المقابر كما هو، مع تغييرات بسيطة في عادات الدفن، نتيجة لتأثره بالفن المصري الجنائزي.

اهتم أهل فلسطين بالزراعة، وبقي تقديسهم لها خلال عصر البرونز المتأخر كما اتسعت تجارتهم مع جزر ايجه، واستمروا في إنتاجهم للأعمال الفنية التطبيقية، وهي الأقمشة المطرزة والأسلحة البرونزية وقد تفوقوا بالنقش على سطح العاج.

والناظر لسوريا ولبنان وفلسطين والأردن ابتداء من الألف الثالث قبل الميلاد يشاهد أنها تكونت في وحدة سياسية واحدة وشعب عربي واحد، خصوصاً في

عصر البرونز المتوسط والمتأخر. كما كانت تنتظم في دول قائمة في حصون وقلاع عرفت باسم الممالك، وقد اهتم كل حاكم بتحصين مدينته لحماية حكمه.

وفي هذه الفترة كانت هناك صلات كبيرة بين فلسطين ومصر، يؤكدها ما عثر عليه من الفخار المصري في خربة كراك وهو إناء أبيدوس، ومن فخار فلسطين وهو فخار بيت شان المعروف ذي الأيدي المموجة في مصر السفلى، وفخار فلسطين الرمادي المصقول الذي عثر عليه في جرزة وفي مقبرة المعادي. ووجود هذا الفخار يرجع إلى فترة قديمة إلى عصر ما قبل الأسرات المصرية. ولم تنقطع العلاقة بين مصر وفلسطين خلال الألف الثانية قبل الميلاد، يدلنا على ذلك (نصوص اللعنات المصرية) إذ ورد بها أسماء دول وحكام ودلت الأسماء على أنها كنعانية. وكان نفوذ مصر قد امتد منذ بداية الألف الثانية قبل الميلاد حتى بلغ سوريا والساحل اللبناني باستثناء شمال سوريا، إذ كانت داخلة تحت نفوذ أرض الرافدين مثل حلب وقرقميش ثم تحت نفوذ الحوريين.

وانقطع نفوذهم خلال فترة (الحقاوخاسوت) وهم الذين عرفوا في التاريخ باسم الهكسوس، إذ توحدت ممالك سوريا ولبنان وفلسطين والأردن وحكموا مصر قرابة مائة وخمسين سنة. ثم عاد نفوذ مصر في عصر البرونز المتأخر على بعض أجزاء من مدن الساحل الكنعاني العربي.

وكان ينافس مصر في هذه الفترة الحثيون وهم الذين أتوا من بلاد الأناضول واحتلوا شمال سوريا، وفي هذه الفترة كانت سوريا عامة في مستوى حضاري لا يقل عن مستوى الحضارة المصرية وخاصة حضارة مجدو بفلسطين(١). وخلال عصر البرونز المتأخر حدث اتصال بجزر بحر ايجه. حيث وفد الكثير من التجار لأخذ

منتجات أهل فلسطين وخاصة الأقمشة الأرجوانية والمطرزة والصناعات المعدنية والعاجية، كما جاء هؤلاء التجار بمنتجات بلادهم وأشهرها الفخار القبرسي.

وخلال عصر البرونز المتأخر، أحيطت المدن بوسائل دفاعية وهي الأسوار العالية والعريضة والمدعمة بالأبراج العالية، الحربية، وكذلك الحال بالنسبة لمنازل الأشراف فإنها لم تتغير في تخطيطها المعماري، إذ بقيت تتألف من حجرات في صف واحد أو تلتف حول باحة تتوسطها وهي مؤلفة من طابقين. وقد عثر على أمثلة من منازل الأشراف تعود إلى عصر البرونز المتأخر في مجدو وبيت ايل وتعنك وأريحا، ومدن أخرى من فلسطين.

استمر نظام الصرف الذي ظهر في أريحا خلال عصر المتوسط فقد عثر في أحد منازل الأشراف في بيت ايل على أنابيب مبطنة بالحجر وهي تسير تحت أرضيات المنازل الجصية لتصريف مياه الأمطار ومياه المجاري خارج أسوار المدينة. أما بالنسبة للعمارة الدينية فقد بقيت المعابد مثل معابد عصر البرونز المتوسط، إذ إن العبادة الكنعانية لم تتغير ولكنهم أدخلوا عليها تعديلات. وقد عثر المنقبون في لخيش على هيكل معبد، كما عثر في مجدو على معبد. وهكذا عثر في بيت شان على أربعة معابد كنعانية وأقدمها قد خصص بـ (ميكال ملك بيت شان) ويعود ذلك إلى نهاية القرن السادس عشر وأوائل القرن الخامس عشر ق.م، كما عثر على مبنى كنعاني ضخم يبلغ طوله ٢٥ متراً وعرضه ٢١ متراً، كان قائماً على جدران خارجية سمكها خمسة أمتار. وللمبنى مدخل على جانبه برجان، وفي داخله صفان من الأعمدة يتألف كل منهما من ثلاثة أعمدة. ويعتقد الباحثون بأنه معبد كنعاني ولكنني أعتقد بأنه قصر وليس بمعبد لأن هذا النظام المعماري هو نظام قصور الأشراف وقد ظهر بفلسطين ابتداء من عصر البرونز

المتوسط(٢).

وقد مهروا بصناعة الفخار وهو نوعان، فخار محلي وتاريخه يعود إلى (١٥٥٠-١٤٥٠ ق.م) عثر منه على كميات كبيرة وتميز بوجود أشكال هندسية تتألف من مثلثات ورسومات لطيور وأسماك. والجدير بالذكر أن الإبريق الفخاري قد استمروا بصناعته خلال عصر البرونز المتأخر. كما ظهر الفخار القبرسي، وذلك لأن العلاقات التجارية بين المدن الكنعانية وبين جزر ايجه خلال عصر البرونز المتأخر قد ازدادت، كما ظهرت جاليات كنعانية داخل جزر البحر في كريت وقبرس ومالطة، حتى إن أسماءها كنعانية الأصل (كريت-مالطة).

واهتموا بفن النقش والنحت فظهرت أعمال ذات طابع محلي، وبعضها متأثر بالأسلوب المصري والبابلي. وهذه الأعمال صنعوها للتجارة، لأنها كانت مطلوبة في الأسواق. وأما الأعمال ذات الطابع المحلي في النقوش والنحت فكانت تصنع ليضعوها في منازلهم ومعابدهم. ومنها الملاعق العاجية من مجدو، والعربة التي تجرها أربعة جياد ويقودها محارب، كما نحتوا أدوات تطبيقية منها الأمشاط العاجية والإبر والدبابيس والأزرار العاجية. واهتموا بالصناعات المنزلية كأدوات المطبخ وهي منحوتة من الخشب، وقد عثر على نماذج منها في أريحا وكذلك في داخل المقابر بأريحا وهي مصنوعة من الفخار.

والتحف المعدنية مهروا بها إلى حد كبير، إذ عثر على السكاكين ورؤوس الحراب والفؤوس الحربية والمخارز والملاقط في أريحا. كما وجد في مناطق متعددة من فلسطين أساور وخلاخل ومشابك للصدر وأقراط وخواتم من البرونز والذهب والفضة، وتاريخها يعود إلى ١٥٠٠ ق.م، كما عثروا أيضاً على صنوج في تل أبو

هوام بالقرب من حيفا وتاريخها يعود إلى القرن الرابع عشر ق.م. ومهروا في صنع الأسلحة الحربية من عربات ودروع وأسلحة أخرى، كما مهروا بصناعة الكؤوس والأباريق من الذهب والفضة، ويؤيد الرأي السابق قول الدكتور نجيب ميخائيل إبراهيم (كانت الحضارة السورية في مستوى الحضارة المصرية إن لم تكن تفوقها في بعض النواحي- والدليل على ذلك أنه لم يظهر من قبل زي عسكري في مصر، ولكننا نشهد في "مجدو" دروعاً تمثل صورها على جدران المقابر، ولم تكن هناك عجلات مذهبة في مصر إذ أنها ظهرت متأخرة، وقد كان ذلك مع الملوك فقط، كذلك الكؤوس والأواني، ويدل هذا على أن الحضارة السورية كانت تفوق المصرية أو تماثلها على الأقل)(٣).

واهتموا بالصناعات الزجاجية وبالأقمشة الأرجوانية والمطرزة، وكانت هذه أكثر صادراتهم إلى جزر بحر ايجه منذ ١٥٠٠ ق.م وهكذا يتضح لنا مما تقدم عروبة فلسطين خلال عصر البرونز المتأخر.

أهم المراجع:

(١) –عبد الرحمن المزين، رسالة الماجستير، الفن التشكيلي في فلسطين عبر التاريخ، ص ١٨١–١٨٢.

(٢) –نفس المرجع السابق، ص ١٨٦.

(٣) –د. نجيب ميخائيل إبراهيم، مصر والشرق الأدنى القديم، رقم (٣) ص ١٠٤–١٠٥. راجع: د. فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مترجم، ص ١٤٠.

كثيراً ما يتردد على الألسنة أن أصل أهل فلسطين من جزيرة كريت وقبرص أو بحر إيجة. ولذلك أردت قبل الحديث عن فلسطين خلال عصر الحديد. أن أبين هوية قبيلة البولستا التي أتت من كريت وهي قبيلة كنعانية الأصل عاشت في الاغتراب فترة من الزمن وعادت مع مطلع عصر الحديد، إلى أهلها ونستطيع أن نتبين ذلك من خلال العرض التاريخي التالي:

مع نهاية عصر البرونز وبداية العصر الحديدي بفلسطين. تحركت شعوب هند وأوربية متجهة إلى آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ودلتا مصر ويشير بعض المؤرخين إلى عدم معرفتهم لسبب هذا التحرك البشري، ولكن بعضهم يفيدنا بأن ميسينا الإغريقية، وهي عاصمة الآخيين التي ازدهرت حضارتها خلال قرنين من الزمان (١٤٠٠-١٢٠٠ق. م) كان لها أسطول، وكانت بحق "سيدة البحر" ولكنها أهملت قوتها البرية، وقد حدث أن ميسينا لم تصمد في وجه القبائل البربرية وهي المعروفة باسم الدوريين، يمثلون الإغريقية الثانية الآتية من الشمال، وقد استطاعوا احتلال العاصمة ميسينا عن طريق البر، وبالتالي لم يستطع أسطول ميسينا الصمود أو الدفاع عن ميسينا، وبذلك انتهت سيطرة الإغريق الأولين المعروفين باسم الأخيون.

وتبعاً لذلك أصبح الأسطول الآخي القومي في عرض البحر بلا وطن، وكان هذا الأسطول يضم بجانب الآخيين الذين يشكلون الأغلبية عناصر أخرى من آسيا ومنهم ما عرف بـ "الآريين" وكذلك عناصر من جزيرة كريت ومن جزر بحر إيجه.

فاتجهوا إلى المملكة الحيثية في آسيا الصغرى، وسقطت تحت ضرباتهم مدن عدة، ثم ساروا عبر سوريا براً وبحراً، ويبدو أن سيرهم كان بمحاذاة المدن

الساحلية، حيث خربوا أوجاريت ودمروها.

ومنذ ذلك الحين لم تقم لها قائمة كما دمروا مدناً كنعانية أخرى ومنها صور ثم ساروا عبر فلسطين إلى دلتا النيل عن طريق البر والبحر، وفي هذه الفترة كانت الإمبراطورية المصرية في حالة لا تحسد عليها، حيث كانت تعاني من حركة قومية عنيفة ذات طابع ديني.

وقد علم ملك مصر بهجوم قبائل البحر، فخرج لملاقاتهم رعمسيس الثالث عام (١١٩١ق. م) وقد شتت قوتهم البحرية والبرية، وبعد هزيمتهم اتجهت "عناصر منهم إلى شواطئ سوريا الشمالية وآسيا الصغرى وجزر البحر الإيجي وسردينيا وإيطاليا"(١).

أي أن كل جماعة اتجهت إلى موطنها الأصلي. أما قبيلة البولاستي فقد اتجهت إلى جزء من ساحل الكنعانيين بفلسطين وهو موطنها الأصلي.

ويذكر بعض المؤرخين أن المدن التي انضموا إلى أهلها الكنعانيين هي غزة –عسقلان –أشدود–عقرون–جت. وبعضهم يشير إلى أنهم أتوا بنسائهم معهم.

وقد تبنوا عبادات الكنعانيين المواطنين ولغتهم(٢). وهؤلاء ذابوا في الكنعانيين أبناء جنسهم. والدليل على أن جماعة البولستا كنعانية، هو ما أوردته في رسالة الماجستير (الفن التشكيلي في فلسطين عبر التاريخ) وهو ما يلي:

١-في المرحلة التي استقر خلالها الفينيقيون في فينيقيا(٣). خرجت منهم شعبة على الأرجح لتستقر في قبرص التي لا تبعد عن الساحل الفينيقي بأكثر من رحلة لا تعدو سفرة يوم واحد، وإنا لنعجز في كثير من المواقع عن أن نفرق بين أهل قبرص وسلالة المهاجرين الجدد من الفينيقيين وإنا لنلاحظ كذلك أن الظروف السياسية في جزيرة قبرص اتخذت نفس الصورة التي كانت لفينيقيا وفلسطين الكنعانية حتى لنرى قيام دويلات صغيرة المساحة بقدر عدد المدن القائمة. ويشير في موضع آخر إلى أن الفينيقيين استقروا في قبرص عام ١٥٠٠ ق. م وقد بقي الفينيقيون في قبرص حتى أخرجهم منها الدوريون (وهذا نفس التاريخ الذي حدثت فيه هجرة قبائل البحر)، كما يشير أيضاً إلى أن هناك شعبة سامية كبيرة جاءت إلى مصر، من عصر الحضارة الأولى، وقد جاء أصحابها من جزر البحر أو الشواطئ الشمالية الشرقية وهي الشواطئ السورية ومن ورائها، وقد كانوا من التجار وأصحاب الحرف(٤).

وهكذا نرى أن الهجرات العربية الكنعانية أو الفينيقية وصلت إلى جزر البحر، قبرص، كريت منذ عصر الحضارة الأولى، أي قبل مجيء جماعة البولستا إلى فلسطين بحوالي ١٨٠٠ عام. أي أن العرب الكنعانيون استقروا في جزر البحر وقبرص وكريت منذ ٣٠٠٠ سنة ق. م.

٢-عندما تعرضت سوريا وفلسطين لهجمات الحيثيين والكاشيين والحوريين، والميتانيين، التي تدفقت إلى العراق وسوريا الشمالية، فقد دفعت بالسكان العرب إلى هجرات متتالية نحو مصر ولكن ملوك الدولة الوسطى منعوها، فاتجه معظمها إلى جزر البحر ومنها جزيرة كريت(٥). وهذا يفيد أن هناك قبائل عربية كنعانية هاجرت إلى جزر البحر وهي كريت وقبرص وغيرها خلال فترة عصر البرونز

المتوسط، أي قبل مجيء جماعة البولستا إلى فلسطين وهذه القبائل حافظت على عاداتها وتقاليدها الكنعانية، كما كانت في فلسطين وسوريا ولبنان والأردن قبل هجرتها إلى جزر البحر.

٣-إن قبائل البحر عندما أتت إلى سوريا وفلسطين خلال نهاية عصر البرونز المتأخر عادت جميعها بما كسبت من غنائم، وبقي منها في فلسطين قبيلة البولاستي، ويبدو أن بقاءها وعدم مهاجمة سكان فلسطين من الكنعانيين لها، راجع إلى أن هذه القبيلة من أصل عربي كنعاني، ولنبذها داخل جزر البحر فقد فضلت البقاء بين سكان فلسطين الكنعانيين القريبين منها في العبادات والتقاليد والأصل.

ويؤكد ذلك أن جماعة البولستا أو قبيلة البولستا قد مارس أهلها عبادة الآلهة الكنعانية "داجون-حورون-عنات-عشتر" دون أي ضغط يمارس عليها من سكان فلسطين الذين يشكلون الأغلبية.

وقد كانوا يعبدون الآلهة الكنعانية داخل جزر البحر كما سبق القول منذ فترة زمنية قديمة ولذلك لم يكن العرب الكنعانيون من سكان فلسطين بالنسبة لهذه القبيلة الكنعانية غرباء ولذلك نلاحظ عدم قيام حروب بينهما(٦).

٤-نلاحظ أن أسماء المدن الكنعانية التي توزعت عليها قبيلة البولستا لم تتغير أسماؤها الكنعانية بل بقيت كما هي. كذلك لم تتغير الديانة واللغة والعادات والتقاليد الكنعانية. وهذا دليل على هوية قبيلة البولستا الكنعانية وإن كان الأمر غير ذلك وكانت البولاستي من سكان جزر البحر...

فإن هذا الأمر لا يغير شعب فلسطين، فالأقلية تذوب في الأكثرية. ولكن الحقيقة واضحة وقد أوضحت ذلك أن هذه القبيلة من الكنعانيين الذين هاجروا إلى جزر البحر على فترات متقطعة خلال عصر البرونز المبكر والمتوسط والمتأخر وقد عادوا من الغربة إلى وطنهم الأصلي فلسطين، وانضموا لأهلها الكنعانيين.

أهم المراجع:

(١) جواد بولس–لبنان والبلدان المجاورة –ص١٠٨–.

(٢) المصدر السابق.

(٣) فينيقيا اسم مرادف لكنعان، وهو آخر اسم أطلق على الساحل السوري، وهو أتى من اللفظة اليونانية فينوكس وتعني تاجر أو صاحب الصبغة الحمراء.

(٤) نجيب ميخائيل إبراهيم–مصر والشرق الأدنى القديم رقم (٣) –ص٩٣، ٩٤.

(٥) نفس المرجع السابق–ص١٠١.

(٦) عبد الرحمن المزين–رسالة الماجستير–الفن التشكيلي في فلسطين عبر التاريخ–ص ١٦٣، ١٦٤.